مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

العدد الرابع عشر
1997

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1427 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1997 أفرنجي

أشعريّة

د. السائح علي حسين

الأشعرية مدرسة من مدارس علم الكلام، تنسب لمؤسسها أبو الحسن الأشعري الذي كان معتزلياً من تلاميذ أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي، وقد دامت صحبته له أربعين عاماً كما جزم بذلك بعض المؤرخين.

كان الأشعري التلميذ المخلص الذي يعتمد عليه أستاذه في مناظرة الخصوم؛ وقد انشق عنه وبدأ يتصدى لأفكار المعتزلة حيث لم يرقه منهم اعتمادهم على العقل وتقديمه على النص المسموع.

وإذا ما اعتبر العقل هو الأساس فلا محيص من تأويل النص ولو أدى ذلك إلى الإغراق في التأويل. لهذا صعد المنبر يوم جمعة وأعلن تركه لأفكار المعتزلة، وإعلان معارضته لهم[1].

ومما هو جدير بالملاحظة أن نتذكر أن الأشعري لم يكن أول متكلم بلسان أهل السنة وأفكارهم، فهو قد اعتنق عقيدة معروفة، أساسها قائم على اعتقاد السلف وأهل الحديث، وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل، بدليل ما ذكره في الإبانة[2]، ومقالات الإسلاميين[3]، وكان دوره في هذا الشأن توضيح الأدلة العقلية والنقلية، وبسط وجهة نظر أهل السنة فكثر أتباعه ومعتنقو مبادئه

(1) وفيات الأعيان/ ابن خلكان 3/ 285.

(2) انظر: الإبانة عن أصول الديانة/ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري/ 17 ط2 دار الكتاب العربي بيروت 1990م.

(3) انظر: مقالات الإسلاميين 1/ 345.

فنسب المذهب إليه، كما نسب مذهب أهل المدينة إلى الإمام مالك[4].

وموقفه من المتشابه لا يختلف عن بقية السلف ويسمي الصفات الموهمة للتشبيه بالصفات السمعية، ويحملها على ما يليق بجلاله ولا نعلم كنهها[5]، وهنا قد يسأل سائل ما دامت عقيدة الأشعري لا تختلف عن سابقيه من سلف الأمة، وما دام يُمِرُّ المتشابه كما ورد ويفهمه بما يليق بجلال الله، ويسلم المعنى المراد لعلم ربه، فبأي شيء استحق هذه الشهرة حتى أصبح إماماً له أتباع ينتسبون إليه ويفخرون بذلك؟

أعتقد أن الأشعري لو كان من أتباع ابن حنبل منذ نشأته لما كانت له نفس الظروف المناسبة للشهرة لأن الإمام أحمد بصفته علماً بين رجال الحديث سيغطي على الأشعري من غير شك.

والسبب الأكيد في شهرته واهتمام أهل السنة به هو تمرده على المعتزلة وخروجه من بين صفوفهم للوقوف ضدهم مجادلاً لهم بأساليبهم التي يعتمدون عليها في المحاورة والإقناع.

فموقف الأشعري ضد المعتزلة يمثل شهادة شاهد من أهلها.

والضجة التي يثيرها بعض السلفيين ضد الأشعري نفسه لا يوجد لها ما يبررها سوى الخصومة القديمة الموروثة بدون تأمل علمي محايد.

وما يحاولون به إثبات أن اللمع يمثل المرحلة الثانية من حياته ليؤكدوا رجوعه عنها، هو أمر غريب إذ لا يوجد في اللمع ما يجعله يخشى أن يلقى الله عليه اللهم إلاَّ إذا كان استعمال العقل ذنباً تجب التوبة منه.

ومقارنة ما كتبه في الابانة ومقالات الإسلاميين بكتبه (اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع) و(رسالة إلى أهل الثغر) و(استحسان الخوض في علم الكلام) تظهر قوة الإتجاه العقلي في منهج الأشعري في المجموعة الثانية؛ حيث يهتم

---

(4) انظر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري/ ط/2 دار الفكر بدمشق 1399 هـ تحقيق حسام الدين القدسي، وتعليق محمد زاهد الكوثري.

(5) شرح الشيخ الطيب بن عبد المجيد بن كيران على توحيد ابن عاشر 1/ 445.

بالبرهنة والاستدلال العقلي على العكس من الإبانة، كما أنه في اللمع لا يهتم بالإشارة إلى ابن حنبل، بل إنه يهاجم الذي يضيقون بالنظر والاستدلال العقلي ويكتفون بالنصوص النقلية وهم الحنابلة كما لا يخفى.

وفي هذا الكتاب لا يتعرض للمتشابه، وإنما يركز على التنزيه المطلق، ونفي المماثل والشبيه لله سبحانه وتعالى.

وفيه اهتم بتوضيح البعث والإيمان والكسب والوعد والوعيد وارتكاب الكبيرة وهي من المباحث التي أهملها في الإبانة.

وقد اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً في فهم مذهب الأشعري أمام هذه المواقف في تراثه.

هل الرجل متناقض في أفكاره، وأنه يقول اليوم ما ينقض ما قاله بالأمس؟

أو هو بآرائه في الإبانة يعتبر راجعاً عن أفكاره السابقة، كما يرى ذلك السلفيون وبعض الباحثين من أتباع المدرسة الوهابية وبعض المستشرقين.

وهل رجوعه عن آرائه إلى رأي الحنابلة خوفاً من بطشهم وضيق أفقهم وعدم السماح لغيرهم بأن يكون له الحق في اعتقاد ما يشاء من الأفكار والمدافعة عنها؟.

أو أن ذلك كان اقتناعاً منه بما دلت عليه ظواهر النصوص من الكتاب والسنة؟.

إن هذا الافتراض هو ما يحرص عليه السلفيون المعاصرون تأكيداً لفكرة الفصل الكامل بين الأشعري وأفكار المدرسة المنسوبة إليه.

أو أن كتاب اللمع هو من آخر ما كتب الأشعري وأنه هو الممثل لأفكاره فهو إنتاج مرحلة النضج الفكري[6].

وبذلك يكون اتجاه الأشاعرة بعده يمثل تطوراً طبيعياً غير منقطع عن فكر إمامهم، وذلك ما اختاره. ومن المعلوم أن مذهب الأشعري قد انتشر في

---

(6) أنظر مقدمة اللمع/ ت.د. حمودة غرابة ط/ 1993 دار التوفيق النوذجية/ الناشر المكتبة الأزهرية للتراث، ومجلة الأزهر/ نقد محب الدين الخطيب لكتاب الدكتور غرابة عن الأشعري/ رد الدكتور غرابة عليه.

المنطقة العربية واتجه غرباً حتى شمل بلاد الأندلس وصقلية وقد تربى في هذه المدرسة أتباع للأشعري أثروا فكره وطوروه وتقدموا به خطوات واسعة في المجال الفكري الخالص ولعل من أشهر هؤلاء القاضي أبو بكر الباقلاني الذي استهوته الفلسفة وأدخل في علم الكلام مسائل من الفلسفة الخالصة لم يكن علماء الكلام يهتمون بها، واعتبر هذه المسائل جزءاً من الاعتقاد، لأن إقامة الحجة لا تتم إلا بمعرفتها، وما توقف الواجب على معرفته فهو واجب.

ومن هذه المسائل الغريبة الجوهر الفرد، والخلاء، والعرض وأنه لا يقوم بالعرض ولا يبقى زمانين ولكن أكثر ما ضيق به الباقلاني هو القول بأن بطلان الدليل يؤدي إلى بطلان المدلول.

بهذا أدخل علم الكلام في متاهات فلسفية عسيرة على عقول عامة المسلمين.

ثم جاء بعده إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني (ت477 هـ) وعلى يده خطا علم الكلام الأشعري خطوة جديدة حيث إن الأشعري كان ينظر لمسألة الصفات التي دار حولها كثير من الجدل على أنها لا تناقش إلا في نطاق التنزيه المطلق والتسليم بها بلا كيف نفياً للمماثلة والمشابهة كما سبق.

وفي مؤلفات الأشاعرة من بعده نجد مناهج مستقلة ـ في كثير من القضايا ـ عن الإلتزام بمنهج السلف ومن ذلك:

1 ـ تأويل الصفات على مقتضيات اللغة من مجاز واستعارة كلما وجدوا ظاهر النص يفيد مشابهة ومشاركة بين صفة الخالق والمخلوق.

ولعل أشمل مصدرين يوضحان هذا المنهج هما أساس التقديس لفخر الدين الرازي[7] ودفع شبه التشبيه بأكف التنزيه لابن الجوزي[8].

ويحتج الأشاعرة لمنهجهم في تأويل النصوص المتشابه ظاهرها بأنها «ظنية سمعية في معارضة قطعيات عقلية»[9].

---

(7) انظر القسم الثاني في تأويل المتشابهات من الأخبار والآيات 103 وما بعدها ت.د. أحمد حجازي السقاط 1986 مكتبة الكليات الأزهرية.

(8) تحقيق طارق السعود ط2/ 1990 دار الهجرة بيروت.

(9) انظر: النشر الطيب/ إدريس بن أحمد الوزاني/ على شرح الشيخ الطيب بن عبد المجيد بن كيران على توحيد ابن عاشر 1/ 438 وما بعدها ط1/ 1348 هـ المطبعة المصرية بالأزهر.

هذا المنهج يبتعد كثيراً عن آراء الأشعري في المقالات والإبانة كما سبق، ونجد له بعض الصدى العقلي في اللمع واستحسان الخوض في علم الكلام.

ومن إضافات الجويني تقسيم الصفات إلى نفسية ومعنوية، ويثبت خلافاً لأكثر المتكلمين الأحوال التي يرى فيها حلاً دقيقاً للعلاقة بين ذات الله وصفاته، لأن الحال صفة تتعلق بشيء موجود، ولكنها لا تتصف هي ذاتها بالوجود ولا بالعدم.

وهو لم يكن المبتكر لها، ولكنها كانت من ابتكار أبي هاشم الجبائي ونفاها أبوه، وأثبتها الباقلاني بعد تردد وأثبتها الجويني[10] ثم رجع عنها كما نفاها الإمام الأشعري نفسه[11].

فالقائلون بنفيها لا يرون إلا صفات المعاني، والقائلون بثبوتها كالجويني والباقلاني يقسمونها إلى نفسية ومعاني ومعنوية.

ووجه الحصر في الأقسام الثلاثة أن المتحقق إما أن يتحقق باعتبار نفسه أو باعتبار غيره، فما تحقق وجوده باعتبار نفسه فهو الموجود، وما تحقق باعتباره غيره فهو الحال.

فإن كان هذا الغير ذاتا موصوفة فهو الحال النفسية، وإن كان معنى يقوم بموصوفه فهو الحال المعنوية[12].

وبهذا أصبحت كتب الأشاعرة في الأزمنة اللاحقة تلتزم بتقسيم الصفات إلى:

1 ـ صفة نفسية وهي الوجود، ويعرفونها بأنها الحال الواجبة للذات، ما دامت الذات غير معللة بعلة.

---

(10) انظر: الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد/ إمام الحرمين الجويني/ ت: د. محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم 80 ط1950 الخانجي بمصر.

(11)نهاية الإقدام في علم الكلام/ عبد الكريم الشهرستاني 131 ت. الفرد جيوم/ مكتبة الثقافة الدينية بمصر.

(12) انظر: عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد الكبرى/ محمد بن يوسف السنوسي 107 وما بعدها مطبعة جريدة الإسلام بمصر 1316 هـ.

2 ـ صفات سلبية وهي: القدم، البقاء، المخالفة للحوادث، القيام بالنفس، والوحدانية، البقاء. وهي التي سلبت عن الله أمراً لا يليق به.

3 ـ صفات معان وهي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، وهي كل صفة قائمة بموصوف زائدة على الذات موجبة له حكماً.

4 ـ صفات معنوية وهي ملازمة للمعاني، كونه قادراً، ومريداً، وعالماً، وحياً، وسميعاً، وبصيراً، ومتكلماً. وهي الحال الواجبة للذات ما دامت المعاني قائمة بالذات[13].

والجويني أول من قال بتأويل الصفات الخبرية، وهو قول رفضه أسلافه، وربما كان أول من ضم إلى علم الكلام ضما عضويا مذهب الذرة طريقة مطردة لإثبات وجود الله، وصفاته، وحدوث العالم على أنه حدوث زمني[14].

وهكذا اختلط الأمر في بعض مؤلفات علماء الكلام حتى ظن أن الفسلفة وعلم الكلام شيء واحد. ثم جاء تطور آخر على يد إمام الحرمين وتلميذه الإمام الغزالي حيث رفضا اعتبار هذه المقدمات جزءاً من المعتقد، كما رفضا كون بطلان الدليل مؤدياً إلى بطلان المدلول، وبذلك رفعا التضييق على المسلمين، وأصبحت طريقتهما هي الطريقة السائدة إلى الآن[15].

ومن هنا يتضح أن أتباع الأشعري قد طوروا أفكاره بشكل أكثر جرأة منه وخالفوه في بعض المسائل

غفر الله لهم جميعاً وجزاهم عن الإسلام خيراً.

---

(13) انظر: شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه/ أبو بكر خليل إبراهيم الموصلي/ 87 ط1/ 1990 دار الكتاب العربي.

(14) انظر: فلسفة الفكر الديني 1/ 116 وما بعدها و130.

(15) انظر: مقدمة ابن خلدون.